

الرؤية الروائية للمأساة الجزائرية
Narrative vision of the Algerian tragedy
د. غنية بوحرّة

المركز الجامعي – سي الحواس- بركة (الجزائر)

مما لاشك فيه أنه بمجرد ذكرنا عبارة رواية الأزمة الجزائرية أو رواية التسعينيات أو رواية العشرية السوداء أو رواية المحنة أو الرواية التسجيلية، يحدث ربط ذهني منطقي مباشر بسنوات الدم وأحداث ومظاهرات الخامس من أكتوبر 1988، وما وقع فيها من اضطرابات وصدمات بين السلطة والشعب، ومن ثم تشعب الأحداث وظهور اتجاهات إسلامية معارضة. ما يثير التساؤل عن الخلفيات السياسية والاجتماعية والاقتصادية للأزمة، وكيف أثرت في الرواية الجزائرية خلال هذه الفترة؟ وكيف صورت الرواية الجزائرية المأساة الوطنية؟

إن طبيعة النظام السياسي في الجزائر القائم على نظام الحزب الواحد. هو الذي أدى إلى طريق مسدود لعدم السماح للآخرين بالظهور والمشاركة السياسية، وذلك لرغبتها في احتكارها السلطة بدعوى الشرعية الثورية، مما ساعد ذلك على تفجر الأوضاع واستياء الشارع الجزائري،» إذ يعود ذلك إلى عملية الإقصاء التي تتعرض لها قوة اجتماعية ذات توجهات سياسية وعقائدية مغايرة، بحيث تمنع من حرية التعبير عن مواقفها كما تُمنع من الدفاع عن مصالحها بطريقة منظمة وضمن أطر شرعية»¹ فيكون الرد العكسي مقابل هذا الكبح والإقصاء اللجوء إلى الاحتجاج ثم استعمال العنف المبرر.

إن الأحداث التي مرت بها الجزائر لم تكن محصلة أزمة سياسية فحسب كما يرى حسن بركة حينما يقول» إن طبيعة الأزمة الجزائرية سياسية بحتة ناجمة عن إلغاء المسار الانتخابي في طوره الثاني، والناجمة عن انتخابات 26 سبتمبر 1991»²، وإنما كانت هذه الحادثة القطرة التي أفاضت الكأس، بخاصة وأن الجزائر قد شهدت اضطرابات وصدمات مع السلطة سابقة تعود إلى بداية الثمانينات، وما حدث فيها من اضطرابات ومظاهرات ومشادات مع الإسلاميين ورجال الأمن، ثم تلتها الأحداث التي قلبت الأوضاع رأساً على عقب وغيرت موازين الحياة بخاصة السياسية منها ويرجع ذلك إلى تفاقم المشاكل الاجتماعية والاقتصادية، من تدهور أوضاع المعيشة، وارتفاع

أسعار المواد الأولية، ونقص السلع الأساسية، وغلاء المعيشة، وانتشار البطالة، وانتشار أشكال الانحراف، إضافة إلى تراجع أسعار البترول وانخفاضها.

كل هذه المشاكل وغيرها جعلت الشارع الجزائري يتفجر بعد صمت لم يدم طويلا، ليدل على أن الأزمة الجزائرية لم تعد «مجرد أزمة تحول عابرة حتمها تبدل المزاج الجماهيري بل كانت في الأساس أزمة تحول شاملة لفت جميع الصعد السياسية والاقتصادية والاجتماعية تجاه حال جديد (غاب فيه نظام شمولي بديل) فتح معه الباب واسعا أمام تداعيات خطيرة نالت من كنه المسار الخاص الذي اتبعته الجزائر منذ الاستقلال، الأمر الذي كون منذ بداية الأزمة رأيا مفاده أنها ستطول وتقرز معها تداعيات ومضاعفات خطيرة تغذيها المطالب الشعبية الراغبة في التحول»³ وتحسين ظروف المعيشة، والبحث عن الحرية والعدالة الاجتماعية، والمطالبة بالتعددية الحزبية التي تعني بالضرورة تعددية ثقافية وفكرية، فبتعدد الأحزاب والحركات تتعدد الرؤى والأيديولوجيات التي كان من المفترض أن تتبع نظام الحوار والمناقشات الهادئة لطرح القضايا الفكرية والسياسية والاجتماعية وحلها، فيكون كل من ساهم في حل هذه المشاكل والرفق بالبلاد والسعي وراء الأفضل هو مثقف عضوي كما حدده غرا مشي لم يحمله هذا المثقف من رغبة في الإصلاح والتشييد والبناء ونشر الوعي الثقافي والفكري.

بعد أن وافق النظام الحاكم بالتخلي عن نظام الحزب الواحد الذي حكم الجزائر منذ الاستقلال، وقبول فكرة التعددية الحزبية وإجراء انتخابات برلمانية لإسكات الشعب وامتصاص غضبه، بدأت التوجهات الشعبية تتضح بميلها إلى الحركة الإسلامية التي وجدت ضالتها فيها، ورغبة الفرد الجزائري إلى العودة إلى ماضيه التاريخي والثقافي والإسلامي من خلال ما تدعو إليه الحركات الإسلامية التي بدأت تكشف عن وجودها باسترجاع هويتها ولباسها، ورغبتها في إقامة دولة إسلامية، ورفض كل ما يمت بصلة بالغرب من مظهر ولباس وهيئة، حتى الثقافة وطريقة التفكير، وذلك بالتخلي عن الثقافة الغربية والتمسك بالأصالة والعودة إلى الأصل والجنور الأولى وفطرة الإسلام، وتطبيق الشريعة الإسلامية لإنقاذ المجتمع من الدنس ومن التخلف ومن المشاكل التي تحيط بالفرد الجزائري من شتى الجوانب، فـ باستعادة عهد الأوائل وتمسك هذا التيار بالدين في اعتقادهم سوف يمكنهم من الخلاص من التبعية والطبقية والتخلف والسلطوية، والعيش في أمن وعدل واستقرار ومساواة. لكن رفض السلطة استمرار هذا التيار جعل أحلامهم وأمانهم تتبخر، فنجم عن ذلك ردة فعل عكسية زادت الأوضاع تأزما بعدما ظن الجميع أنها بدأت تنفرج شيئا فشيئا بعد قبول التعددية الحزبية

والفكرية، غير أن إلغاء وتوقيف مسار الانتخابات الذي حل محلها صوت السلاح أدت إلى «بروز ظاهرة العنف السياسي حيث أصبح يطبع الحياة السياسية بمختلف مستوياتها»⁴ وبذلك بروز ظاهرة العنف المضاد والمسلح نتيجة لحالات الإقصاء ورفض الآخر والرغبة في الاستيلاء على السلطة.

كل هذه الأوضاع والمظاهر والاضطرابات والمشاكل والتصدعات والصراعات مع السلطة وغيرها لم تغفل عنها الرواية الجزائرية التسعينية، بل كانت موضوعا دسما اشتغل عليه الروائيون لينقلوا للقارئ كل ما هو حيني وظرفي ويحولوا التجربة الواقعية المرة إلى تجربة إبداعية فنية، فراحت الكتابة الروائية تواكب الأزمة وتتبع مسارها خطوة خطوة مسائلة المحنة، والأطراف المتسببة في ذلك.

فقد واكبت الرواية الجزائرية الأزمة التسعينية على أصعدة مختلفة مما جعلها تؤرخ لسنوات العنف والمأساة الوطنية» التي فرضت تيمات كتابية وأساليب سردية وطرائق بنائية اشتركت كلها في التنديد بالواقع وإدانة الأعمال الدموية»⁵، وحاولت البحث عن أطراف الصراع وعن أسبابه ونتائجه مما أوقعها في فخ التسجيلية معتمدة على سرد الراوي أو الشخصيات الروائية، وفي الغالب يكون السارد العليم هو الذي يتكفل بمهمة السرد، حتى يجول في أعماق الشخصيات ويعبر عن مكبوتاتها ومشاعلها وأحزانها، ويتركها تستقر القارئ ليتعرف على حقيقتها ومدى فاعليتها في النص.

إضافة إلى ذلك فقد بحثت الرواية عن جذور العنف والأزمة وفضحت السلطة والمعارضة والأيديولوجيات المتضاربة، التي تخفت وراء قناع خدمة المصالح العامة من أجل تحقيق أهداف سياسية خاصة، واشتغلت على تعرية الواقع والكشف عن هذه الأيديولوجية وعن الحقائق المؤلمة، والإجابة عن أسئلة لطالما حيرت الكثيرين بالوقوف عند مرجعيات «وحيثيات هذه الأزمة والغوص في تفاصيل الواقع المأساوي في محاولة محاورته والوقوف على أسبابه بصورة تحليلية نقدية، مُناشدة الأعمال الإجرامية التي تقودها الجماعات المسلحة، فكان الواقع ومجرياته هو الملهم الأساس للكتابة الروائية»⁶، إذ وجد الكُتّاب أنفسهم مرغمين على ذلك إن صح التعبير، فقد فرضت هذه المأساة والمحنة نفسها على الكُتّاب، بخاصة أن بعضهم لم يسبق لهم وأن خاضوا تجربة الكتابة الروائية، بل الواقع المرير هو الذي دفعهم إلى ذلك لبث أحزانهم وآلامهم وجروحهم وهمومهم ليعكسوا في الآن نفسه أحزان وآلام وجروح وهموم شعبهم ويجسدوا «المأساة الوطنية بكل تناقضاتها ومفارقاتها في قالب روائي وفق آليات فنية»⁷ تختلف من كاتب إلى آخر» لأن ما حدث في جزائر التسعينيات لم يكن

ليغري الأديب بالكتابة بقدر ما كان يجبره عليها، لأنها الملاذ الآمن للمثقف آنذاك، حيث كان من أكثر الرموز استهدافا للتصفية، فراحت الكتابة الروائية تواكب الأزمة، فولد بذلك نوعا روائيا جديدا تقلده مجموعة من الكتاب بمجموعة من النصوص الروائية والقصصية باللغتين الفرنسية والعربية والتي تصب كلها وتتبع من الأوضاع المفجعة التي عايشتها الجزائر منذ بداية التسعينيات وانعكاس هذه الأوضاع على مختلف شخوص الوطن في محاولة للبحث عن الحقيقة وعرضها وفق رؤى متعددة، تصل حد التناقض في الغالب»⁸.

إن سنوات الدم والمحنة التي عالجتها رواية الأزمة كشفت عن أثرها السلبي في الشخصيات الروائية، وذلك بميلها إلى الاغتراب والانكفاء على الذات، والخوف والقلق وميل بعضها إلى العنف والقتل بعد تحولهم عن قناعتهم وأيديولوجيتهم وقيمهم التي طالما دافعوا عنها، بمطالبتهم حرية الرأي والتعبير، ويرجع ذلك إلى إقصائهم وتغنيهم والزج بهم في سجون الذل والمهانة، بخاصة بعد مظاهرات أكتوبر وانقلاب الأوضاع رأسا على عقب بعد تعطيل مسار الانتخابات البرلمانية، فسجن الكثير ظلما ليس لشيء إلا لأنهم نالوا رضى شعبهم وعبروا عن مواقفهم بصدق، أو لأن بعضهم كان من بين المتظاهرين، كما حدث لإحدى شخصيات رواية الورم، لما تقفن "موح" رجل الدرك في تعذيبه لمجرد أنه سرق خمس ساعات إلكترونية، بل الأكثر من ذلك إصراره على اتهامه أنه من مشجعي الحزب الإسلامي لوجوده كأحد المتظاهرين في شوارع العاصمة. أضف إلى ذلك سجن المثقفين والمتدينين للأسباب نفسها واتهامهم بإشعال نار الفتنة، فكان جزاؤهم أن مورست ضدهم مختلف أشكال التعذيب -كما سنبين ذلك لاحقا- وكأنهم في مخبر تجارب، يجربون أي الأدوات أنفع وأفضل لتحقيق اللذة والمتعة من جراء التعذيب، حتى يكاد يجزم القارئ أن هذه الطرق الجهنمية في التعذيب التي صورتها الرواية قد ورثتها السلطة الجزائرية من السلطات الفرنسية وتأثرت بها إلى حد التقليد الأعمى، فعرضت الرواية في محاولتها إعادة إنتاج الواقع «نماذج بشرية حولتها الظروف إلى آلات بلا ضمائر تحترف البطش والتكيل، كما حاولت الالتباس بجلد الضحية لتعرض نوازعها العميقة وهي تواجه الموت المجاني بأيدي إخوان يتقاسمون معهم الأرض والدم والدين»⁹.

لم تغفل الرواية إلى جانب ذلك عن الكشف عن الأيديولوجيات الماثرة في المتن الروائي والصراع القائم بينها، وركزت أكثر على الأيديولوجية الإسلامية وكيف بدأت كتيار فكري في إطار شرعي وتحولت إلى قوة سياسية استغلت الدين واتخذته وسيلة لتحقيق غايات سياسية باستعمال شعارات زائفة كشعار البلدية الإسلامية، الدولة

الإسلامية، عليها نحياء وعليها نموت وعليها نلقى الله، (الورم، سيدة المقام، الشمعة والدهاليز، متاهات ليل الفتنة...) متأثرين في ذلك بآراء سيد قطب في كتابه "معالم في الطريق" و"توسمات" "لمحمد شكري" وأيضا كل من "المودودي" و"حسن البنا" التي كانوا يعرضونها في نقاشاتهم وحواراتهم بخاصة في السجون أين وجدوا الفرصة مواتية لعرضها وطرح بعض القضايا الدينية وتكفير كل من يرفضها أو يعارضها كما هو الحال في روايتي "الورم" لمحمد ساري و"فتاوى زمن الموت" "لإبراهيم سعدي". إذ قام أصحاب اللحي بتعميم فتوى القتل، فلم يسلم أحد من هذه الفتوى حتى الأخ من أخيه، كما لم تسلم الشخصيات المثقفة من هذه الفتاوى في "المراسيم والجنائز" لإبراهيم سعدي بل كانوا الفئة الأكثر عرضة لذلك، ليجد المثقف نفسه أمام أمر محتوم لا مفر منه .

والأكثر عرضة للقتل والتهديد كما صورتهم رواية الأزمة هم الأساتذة الجامعيون والصحفيون. هؤلاء الذين تعتبرهم الجماعات الإسلامية عملاء للسلطة -الطاغوت كما يحلو لهم تسميتهم- وبذلك لابد من تصفيتهم وإزاحتهم عن طريقهم لأنهم يزجون السلطات والمعارضة ويقفون حجر عثرة في طريقهم. لذلك نعتقد أن الكاتب أراد أن يكشف عن معاناة ومأساة هذه الفئة إذ اعتمد أسلوبا «أقل ما يقال عنه تحرى فيه الإلمام بجوانب الأزمة التي لا يمكن اختزالها في الجانب السياسي على الرغم من مركزيته في الأحداث»¹⁰.

مما سبق يتبين أن رواية الأزمة طرحت أيديولوجيات متضاربة تكاد تسيطر على المتن الروائي التسعيني «الأمر الذي يؤكد جوهر الصراع في الرواية والواقع حيث تسعى كل أيديولوجيا إلى تكريس الغلبة عن طريق إلغاء وهدم ما عداها»¹¹.

والرواية على الرغم من تصويرها لعنف الإرهاب في أبشع صوره إلا أنها تكاد تجمع «على إدانة السلطة في تغذيتها العنف من خلال سياستها الاقتصادية والتربوية والاجتماعية، ونتيجة فشل المشروع الاشتراكي»¹²، فذهبت تجسد ذلك الصراع الأيديولوجي والمادي الذي كانت السلطة أحد أطرافه بعدما استعانت بمختلف الوسائل الأيديولوجية في محاولة فرض السيطرة ورفض التعددية الحزبية والفكرية.

فلقد أثرت الأزمة بشكل كبير ولافت على الرواية الجزائرية سواء من حيث التيمات التي تكاد تكون متماثلة ومتشابهة ، أو من حيث الشكل الروائي والفني، إذ تأثر معظم الصحفيين بمهنتهم، وحتى غير الصحفيين "كواسيني الأعرج" في "ذاكرة الماء" و"بوجدره" في "تيميمون" حينما ينقلان الأخبار التي كانت ترد على صفحات الجرائد

اليومية، إذ يلجأ الكاتب عادة إلى الاستعانة ببعض القصصات الصحفية وإعادة تدوينها حرفيا على صفحات الرواية أو استيقاء الأخبار من اغتيالات وتهديدات وتهديم من الإذاعة والتلفزيون. مما أثر ذلك سلبا على الشكل الروائي، حتى يخيل للقارئ أنه يتصفح جريدة أو مجلة تحكي وقائع وأحداث المأساة - وإن اعتبر ذلك شكلا روائيا جديدا ميز الرواية التسعينية الجديدة- ولعل الهدف من ذلك هو رغبة الرواية في الكشف عن ظاهرة العنف للقارئ حتى « يتعرف على العقل الذي مثل خلفيتها الفكرية والعقدية وحولها إلى ممارسة فعلية، فيقرأ عن شخصيات متعصبة تعاني الجمود الفكري وتمارس الاستبداد السياسي »¹³ وقد تجعل من هذه الأخبار موضوعا مناسباً للكتابة الروائية.

إن هذا العنف الذي أفرزه الواقع وصورته الرواية تجسد كظاهرة إنسانية فطرية ناتجة عن الملاحقات والمداهمات والتهديدات والتعذيب والموت، لذلك يحس القارئ أن « الخوف حالة طاغية في البنية الشعورية للرواية »¹⁴.

هكذا جاءت نظرة الرواية إلى الأزمة الجزائرية من زوايا نظر مختلفة، رصدت أحداثها وجسدت وقائعها، حملت مآسي الشعب وهموم المثقف بلغة عنيفة صاحبة بعنف أحداثها وحمرة دماؤها أحيانا، وبلغة سطحية تقريرية مباشرة في أحيان كثيرة. والذي دفع إلى هذا النوع من الكتابة غياب التجربة ودخول روائيين جدد عالم الرواية، إذ اشتغل بعضهم في مجال الصحافة¹⁵ فظهر أثر ذلك واضحا في مدوناتهم، وأيضا تأثرهم بمأساة وطنهم إذ لم يجدوا مجالا للتفكير في كيفية كتابة رواية ذات أبعاد فنية وجمالية بعدما كان كل همهم نقل رائحة الموت والدم وتجسيد معاناة المثقفين. بخاصة إذا كانوا مستهدفين وشهود عيان على آلام شعب ترسخت في أذهان الكثيرين ونقشت على ذاكرة المفجوعين.

إن رواية المحنة أو العشرية السوداء قد جسدت الأزمة الجزائرية والمأساة الوطنية بكل صدق وبخلفياتها وأسبابها ونتائجها كما جاءت في الواقع، ورسمت بقلم كاتب مبدع الأعمال الشنيعة التي مارسها النظام على المتظاهرين والإسلاميين في بداية دعوتهم، والعنف الإرهابي المسلح كرد فعل مضاد لم لاقتله الأحزاب الإسلامية من إقصاء وإلغاء نهائي. إنها فعلا رواية الموت والفجيرة ورواية البحث عن المجهول وعن المتسبب الحقيقي في إشعال نار الفتنة من وجهات نظر متعددة بحيادية تامة أحيانا أو بتوجيه أصابع الاتهام إلى جهات معينة أحيانا أخرى.

الإحالات:

- 1 - بلقاسم سلاطينية، سامية حميدي: العنف والفقر في المجتمع الجزائري، دار النشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2008، ص 182 .
- 2 - حسن بركة: أبعاد الأزمة في الجزائر *المنطلقات، الانعكاسات، النتائج*، شركة دار الأمل للطباعة والنشر، برج
- 3 - صالح فيلالتي: أيديولوجيات الحركة الوطنية الجزائرية، *الأزمة الجزائرية الخلفيات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية*، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1999، ص 2، ص 79.
- 4 - حسن بركة: أبعاد الأزمة في الجزائر، ص 67 .
- 5 - عبد الله شطاح: قراءة في الرواية الجزائرية *متن العشرية السوداء بين سطوة الواقع وهشاشة المتخيل*، مؤسسة كنوز للنشر والتوزيع، مجلة الحكمة، العدد 3، جويلية، 2010، ص 151.
- 6 - سعاد طويل : تجليات المأساة الوطنية في رواية الورم لمحمد ساري، أسئلة الحداثة في الرواية الجزائرية، ملتقى الرواية الرابع، رابطة أهل القلم، سطيف، 2008، ص 176.
- 7 - نفسه، ص 177.
- 8 - عامر رضا، كريعب نسيمية: رواية الأزمة المكتوبة بالفرنسية وإشكالية الترجمة، قسم الأدب العرب، جامعة (ميلة- جيجل)، تاريخ النشر: 10-09-2010، تاريخ الزيارة : 15-07-2011. <http://pulbit. Alwatnvoice.com>
- 9 - عبد الله شطاح: قراءة في الرواية الجزائرية، ص 151.
- 10 - نفسه 154 .
- 11 - أمانة بلعلي: المتخيل في الرواية الجزائرية *من المتخيل إلى المختلف*، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، نيزي وزو، (د ، ط)، 2006، ص 124.
- 12 - نفسه، ص 78
- 13 - الشريف حبيلة: الرواية والعنف *دراسة سوسيو نصية في الرواية الجزائرية المعاصرة*، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2010، ص 17 .
- 14 - أمين الزاوي: صورة المثقف في الرواية المغربية *المفهوم والممارسة*، دار النشر راجعي، الجزائر، 2009، ص 179 .
- 15 - أمثال: احميدة عياشي (مدير جريدة جزائر نيوز)، مراد بوكراززة (مدير إذاعة جيجل)، سفيان زداقة (صحفي وأستاذ بجامعة سطيف) فضيلة الفاروق، ياسمينه صالح، زهرة ديك...